مجلة جامعة دمشق للدراسات التاريخية

اسم المقال: السماء في الفكر الرافدي القديم
اسم الكاتب: د. حسان عبد الحق
رابط ثابت: https://political-encyclopedia.org/library/2708
تاريخ الاسترداد: 2025/05/10 08:26 +03

الموسوعة السياسيّة هي مبادرة أكاديمية غير هادفة للربح، تساعد الباحثين والطلاب على الوصول واستخدام وبناء مجموعات أوسع من المحتوى العلمي العربي في مجال علم السياسة واستخدامها في الأرشيف الرقمي الموثوق به لإغناء المحتوى العربي على الإنترنت.
لمزيد من المعلومات حول الموسوعة السياسيّة - Encyclopedia Political، يرجى التواصل على info@political-encyclopedia.org

استخدامكم لأرشيف مكتبة الموسوعة السياسيّة - Encyclopedia Political يعني موافقتك على شروط وأحكام الاستخدام المتاحة على الموقع https://political-encyclopedia.org/terms-of-use

تم الحصول على هذا المقال من موقع مجلة جامعة دمشق للدراسات التاريخية ورفده في مكتبة الموسوعة السياسيّة مستوفياً شروط حقوق الملكية الفكريّة ومتطلبات رخصة المشاع الإبداعي التي ينضوي المقال تحتها.

السماء في الفكر الرافدي القديم

د. حسان عبد الحق*

الملخص

يتناول البحث السماء في الفكر الرافدي. وبحسب هذا الفكر الآلهة هي التي خلقت السماء، غير أن المصادر اختلفت فيما بينها حول طريقة الخلق، وهوية الخالق. وفي السماء كان يقيم عدد من الآلهة، وكانت مسؤولة عن كل شيء ترسله السماء إلى الأرض مثل الماء، والنور، والملكية، والعدالة، والخوف، والطوفان، والمرض. وكانت آلهة السماء تهبط باستمرار إلى الأرض والعالم السفلي لتأدية بعض المهام المتعلقة بهذين العالمين، وبعد الانتهاء من مهامها تعود ثانية إلى السماء. وتستحق كل هذه النقاط أن ندرسها دراسة تفصيلية لنتمكن من فهم المعتقدات الدينية الرافدية المتعلقة بالسماء.

*أستاذ مساعد في قسم التاريخ – جامعة دمشق.

Hassan Abdulhak

Abstract

This article seeks to demonstrate the sky in Mesopotamian thought. According to this thought, the gods were those who created the sky, but ancient sources differed on the method of creation and the identity of the Creator. In heaven there were a number of resident gods, and they were responsible for everything that heaven sends to the earth, such as water, light, property, justice, fear, flood, and rain. disease. The gods of heaven were constantly descending to the earth and the lower world to perform certain tasks related to these two worlds, and after completing their missions, they would return to heaven. All of these points deserve to be studied in detail, which allows us to understand Mesopotamian religious beliefs related to heaven.

المقدمة:

من خلال الاطلاع على الكثيرمن الأساطير، والمعتقدات الدينية الرافدية القديمة، لاحظنا اهتمام صناع الفكر الرافدي بالسماء، فقد شغلت موقعاً مهما فيه. ويمكن عدُّها إحدى المسائل المهمة التي جذبت الإنسان الرافدي منذ أقدم العصور، شأنها شأن الأرض والماء والنبات والكواكب والجبال والحيوان...إلخ. وكان لهذا الانجذاب تأثيره و انعكاسه في فكر سكان بلاد الرافدين ومعتقداتهم. ولم يأتِ هذه التأثير من فراغ، بل من ممارسات ومشاهدات واقعية شاهدها الإنسان الرافدي بأم عينه، وحاول أن يبحث عن تفسيرات لها، فلم يجد أمامه إلا التفسيرات الدينية التي تحولت إلى فكر اعتقده وآمن به.

فعلى سبيل المثال، هطول المطر من السماء إلى الأرض هو مشهد واقعي، بحث الإنسان الرافدي عن تفسير له، فوجد في النهاية أن المطر لا يهطل من تلقاء نفسه، بل بأمر من إله السماء الذي كان يتحكم به، فهذه الأمطار هي منيه الذي يتساقط على الأرض ليلقحها (المقصود هنا إرواء الأرض بماء المطرلتنمو النباتات عليها).

ولدينا الكثير من الأمثلة، لكن لامجال للتفصيل بها الآن، سنحاول عرضها في مواقعها المناسبة في البحث.

ومن أسباب اختيارنا لهذا الموضوع الرغبة في تحديد الحيز الفكري الذي شغلته السماء في الفكر الرافدي، ومعرفة الأسباب التي جعلتها تشغله. ولكي نتمكن من معالجة هذه النقاط سيحاول بحثنا الإجابة عن الأسئلة الآتية: كيف خُلقت السماء، ومن أي مادة؟ وما الأسباب التي جعلت الرافديين ينجذبون إلى السماء؟ وما المسائل السماوية، التي عالجها الفكر الرافدي؟ وما انعكاساتها على الأرض حيث يعيش الإنسان؟وما أهمية السماء ومكانتها في نفوس الرافديين؟

وسنعتمد في بحثنا على النصوص، التي تحتوي على إشارات تتعلق بمختلف القضايا السماوية التي تهم البحث، لعلنا نتمكن من تكوين صورةعن السماء كما أظهرها الفكر الرافدي. وسنتطرق إلى بعض القطع الفنية أيضاً، التي تتضمن إشارات فنية ذات مدلول فكري، ترتبط بالسماء ارتباطاً مباشراً.

أولاً: خَلْقُ السماء:

اهتمت الأساطير الرافدية القديمة بمسألة خلق الكون[1]، وتعدُّ عملية خلق السماء جزءاً من عملية خلق الكون التي تحدثت عنها هذه الأساطير. وعلى الرغم من إجماعها على مسألة خلق السماء، إلا أنها اختلفت فيما بينها حول طريقة الخلق، وهوية الخالق.

وقبل أن تتناول هذه الأساطير الخلق، والخالق، أشارت إلى الحال الذي كان قبل خلق الكون، وورد ذلك في قصة الخليقة البابلية (حينما في العلى)، ومما جاء فيها:

حينما في الأعالي لم تكن السماء (بعد) قد سُميت،

وفي الأسافل لم تكن الأرض (بعد) قد ذُكرت باسم[2]،

ونستنتج من ذلك أن الكون، ومنه السماء، لم يكن موجوداً، وبدأ بالتكون لاحقاً، وقد أشارت مقدمة ملحمة جلجامش إلى ذلك، فالأرض والسماء كانتا كتلة واحدة، وانفصلتا عن بعضهما كخطوة أولى في عملية الخلق:

في تلك السنين، تلك السنين الموغلة في القدم

حينما فُصل العلى (السماء) عن الأسفل[3]

---

[1] الشرقاوي، محمد عبد الرحمن، مفهوم فصل السماء عن الأرض في الفكر الديني القديم في مصر وبلاد الرافدين، دراسات في آثار الوطن العربي 5، ص315.

[2] هايدل، ألكسندر، سفر التكوين البابلي، قصة الخليقة (حينما في العلى)، ترجمة سعيد الغانمي، منشورات الجمل، ط1، كولونيا (ألمانيا)، بغداد، 2007، ص31.

[3] بوتيرو، جان، بلاد الرافدين، الكتابة–العقل–الآلهة، ترجمة الأب البير أبونا، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، 1990، ص266.

وتذكر إحدى الأساطير السومرية، أن السماء خُلقت من مياه البحر الأزلية (نامو)، وكانت ملتصقة بالأرض، وكان الفضل للإله إنليل بفصلها عنها4. وتتشابه طريقة الخلق هنا مع ما أوردته مقدمة ملحمة جلجامش. وتتطابق الأسطورة السومرية جزئياً مع ما جاء في إحدى التراتيل التي أشارت إلى دور الإله إنليل في خلق السماوات والأرض: آه يا إنليل عندما خلقت السماء والأرض5. وعلى خلاف هذا النص، هناك نص آخر جاء فيه أن آنو /آن أبو إنليل هو الذي خلق السماء: عندما خلق آنو السماء[6]، وذكر نص ثان الخالق نفسه، لكن بطريقة أخرى: حينما ولد آنو السماء[7].

وبالعودة إلى مصادر أخرى، نلحظ أن شماش إله الشمس هو الذي خلق السماء والأرض، وقد ورد ذلك في نص يتعلق به: خالق كل ما في الأرض وما في السماء[8]. في حين ذكر نص آخر أن الإله إيرا[9]هو خالق الكون: يا خالق العالم[10].

وبحسب أسطورة الخليقة البابلية، الإله مردوك هو خالق الكون من خلال حربه مع تيامات التي تمثل المياه المالحة، وقد انتهت هذه الحرب بانتصاره عليها، شاطراً جسدها إلى قسمين، وجاعلاً من الأول السماء، ومن الثاني الأرض[11]. ونلحظ هنا اختلاف الرواية البابلية عن الروايات السابقة، فالخالق ليس إنليل أو شماش أو إيرا، إنما مردوك

[4]علي، فاضل عبد الواحد، من سومر إلى التوراة، ط2، سينا للنشر، القاهرة، 1996، ص194–195.
[5]الطعان، عبد الرضا، الفكر السياسي في وادي الرافدين، دار الخلود للنشر، بيروت،1981، ص77.
[6]الشواف، ديوان الأساطير، ج2، دار الساقي، ط1، 1997،ص56.
[7]بوتيرو، المرجع السابق، ص269.
[8]يحيى، أسامة عدنان، الآلهة في رؤية الإنسان العراقي القديم، دراسة في الأساطير، آشوربانيبال للكتاب، ط1، بغداد، 2015، ص119.
[9]هو إله أكادي يختص بالحرب ونشر الأوبئة، انظر ادزارد د.، بوب م.ه، رولينغ ف.، قاموس الآلهة والأساطير في بلاد الرافدين (السومرية والبابلية)، في الحضارة السورية (الأوغاريتية والفينيقية)، تعريب محمد وحيد خياطة، ط1، حلب، 1987، ص64–65.
[10]ايحيى،المرجع السابق، ص119.
[11]هايدل، المرجع السابق، ص23.

ملك الآلهة البابلية، واشتمل الاختلاف على طريقة الخلق أيضاً، فقد أظهرت الرواية السومرية أن السماء خُلقت بطريقة سلمية من خلال فصلها عن الأرض، وقد أشارت مقدمة ملحمة جلجامش –التي أشرنا إليها آنفاً– إلى ذلك، وكذلك اللوح الثاني عشر من الملحمة نفسها: عندما فصلت السماء عن الأرض، وفصلت الأرض عن السماء[12]، في حين كان للحربالدور الأكبر في خلق السماء والأرض حسب الفكر البابلي. ومن أسباب خروج ملحمة الخليقة البابلية عن التقليد السلمي المتبع في مسألة خلق الكون، وتبنيها للحرب، تأثرها بالحروب البابلية[13]، التي كانت بابل تسعى من خلالها إلى بسط سيطرتها على باقي المدن[14].

والسؤال الذي يطرح نفسه: ما سبب تعدد الآلهة التي خلقت السماء كجزء من عملية خلق الكون؟ أليس الأجدر بالفكر الرافدي أن يركز على إله واحد كخالق للسماء بخاصة، وللكون بعامة؟ يعود ذلك إلى التطورات الدينية التي طرأت على مجمع الآلهة الرافدي، فكما هو معروف آن\آنو هو أبو إنليل، وذكرنا أعلاه أن الأساطير أظهرت الاثنين كخالقين للسماء، وربما يكون سبب ذلك تعاقبهما على رئاسة مجمع الآلهة، ففي بداية الأمر كان آن هو سيد الآلهة[15]، لكنه ابتعد عن هذه المهمة لاحقاً، وخلفه ابنه إنليل[16]،ونعتقد أن الفكر الرافدي أراد أن يبرز عظمتهما كملكين للآلهة، خلف أحدهما الآخر، فأظهر كلاهما على أنه خالق السماء.ويعدُّ ذلك تطوراً دينياً في مجمع الآلهة الرافدي. وقد يكون هناك سبب آخر، يتمثل بانتماء الإلهين إلى الثالوث المقدس في

[12]الشواف، المرجع السابق، ج2، ص33.

[13]هذه الحروب تعود إلى عصر الدولة البابلية الأولى (1894 – 1595 ق.م)، ومن المحتمل أن الملحمة صيغت في عصر هذه الدولة، وليس في الألف الأول ق.م كما يعتقد البعض، انظر هايدل، المرجع السابق، ص30.

[14]هايدل، المرجع السابق، ص26.

[15]علي، فاضل عبد الواحد، الطوفان في المراجع المسمارية، بغداد، مطبعة الإخلاص، 1975، ص30.

[16]بوتيرو، المرجع السابق، ص259.

المجمع الديني الرافدي (آن، إنليل، إنكي)، وقد اكتسبا مكانة مرموقة نتيجة هذا الانتماء، وعبَّر الفكرالرافدي عنها بجعلهما خالقين للعالم. ويُعزى تعدد الآلهة الخالقة للكون إلى بعض التطورات السياسية أيضاً، فقد كنا ذكرنا أعلاه أن مردوك هو خالق الكون بحسب أسطورة الخليقة البابلية، ويعود ذلك إلى التطورات السياسية التي شهدتها بلاد الرافدين، والتي تتجلى بظهور البابليين على المسرح السياسي (الدولة البابلية القديمة)، ومردوك هو إله البابليين الأعظم، وكان يقع على عاتقهم إبراز مكانته، وكانت الظروف السياسية مواتية لذلك عندما كان البابليون يشكلون قوة مؤثرة في بلاد الرافدين، ونتج عن ذلك صياغة أسطورة الخليقة على نحو أظهره ملكاً للآلهة وخالقاً للكون.

وأياً تكن الأسباب، التي أدت إلى تعدد الآلهة، التي أسهمت في خلق السماء كجزء من خلق الكون، وأياً تكن الآلية المتبعة في خلق الكون (فصل الأرض عن السماء، أو الحرب بين قوتين إلهيتين وشطر جسد إحداهما إلى قسمين)، تعدُّ عملية فصل السماء عن الأرض خطوة مهمة في عملية الخلق، فلولاها ما ظهرت الأجرام في السماء، وما تعاقب الليل والنهار، وما تفجرت الينابيع، ونمت النباتات على سطح الأرض[17]. وأدت هذه التطورات الكونية إلى ظهور الحياة على الأرض، وكان ذلك يعود بالفائدة على الإنسان، الذي يعدُّ واحداً من المخلوقات التي خُلقت بعد خلق الكون. والجدير ذكره أن أنشطة الأرض–التي أفاد الإنسان منها– كانت ترتبط بأنشطة السماء، فقد كانت هذه الأنشطة مكملة لبعضها، وسيتضح لنا ذلك عندما نشرح وظائف السماء لاحقاً.

ثانياً: شكل السماء ومادتها:

لم يكتفِ الفكر الرافدي بذكر الخالق وطريقة الخلق، بل تطرق إلى شكل السماء والمادة التي تتكون منها أيضاً، وقدم وصفاً لها. ولكي نفهم هذه المسألة يجب علينا

[17] الشرقاوي، المرجع السابق، ص322.

العودة إلى الفكر السومري الذي يرى أن الكون يتكون من السماء (آن An)، ومن الأرض (كيKi)[18]، وبجمع الكلمتين إلى بعضهما نحصل على المصطلح السومري الذي كان يطلقه السومريون على الكون أن–كي.

وكانت الأرض قرصاً منبسطاً، وأما السماء التي كانت تعلو الأرض، هي قبة مصنوعة من معدن القصدير، لأن معنى كلمة قصدير بالسومرية معدن السماء[19]، وبين الأرض والسماء مادة تسمى ليل Lil، وتعني هذه الكلمة الريح، الهواء، النفس، الروح، وهذه المادة قابلة للتمدد، ولذلك فهي تقابل الجو، وكان يُعتقد أن الشمس، والقمر، والكواكب التي تنتشر في السماء، مخلوقة من المادة نفسها التي خُلق منها الجو[20].

والشيء اللافت للانتباه في هذا العرض مادة القصدير التي كانت السماء تتكون منها بحسب الفكر السومري، علماً أن إحدى الأساطير السومرية–التي أشرنا إليها أعلاه– ذكرت أن الماء هو المادة التي خُلقت السماء منها، ألا يدل ذلك على تناقض بين المصادر التي تناولت هذه المسألة؟ من المستبعد أن يكون ذلك تناقضاً؛ لأن الماء هو مادة الخَلق الأولى، أما القصدير فهو المادة، التي كانت تتكون منها السماء في صورتها النهائية. ونستنتج من ذلك أن الفكر السومري فرّق بين مادة الخلق الأولى، والمادة التي تكونت منها السماء في صورتها النهائية بعد انتهاء عملية الخلق. ولو عدنا إلى الفكر البابلي، نلحظ أن السماء كانت تتكون من جزء من جسد تيامات، وباعتقادنا يتطابق ذلك

[18] إلياد، مرسيا، تاريخ المعتقدات والأفكار الدينية، ترجمة عبد الهادي عباس، الجزء الأول، دار دمشق، ط1، 1986–1987، ص81.

[19] كريمر، صموئيل نوح، السومريون تاريخهم وحضارتهم وخصائصهم، ترجمة فيصل الوائلي، دار غريب للطباعة، الكويت 1963، ص149.

[20] معدى، الحسيني، الحسيني، أساطير العالم، الأساطير السومرية، ط1، كنوز، القاهرة، 2012، ص8.

مع الفكر السومري فيما يتعلق بمادة الخلق الأولى، لأن تيامات تمثل المياه المالحة، غير أن طريقة الخلق وأدواته اختلفت كما ذكرنا سابقاً، متأثرة بالوضع السياسي للبابليين.

ثالثاً: طبقات السماء وبواباتها:

من خلال معالجتنا للعناوين السابقة استخدمنا مصطلح السماء استناداً إلى النصوص التي اعتمدنا عليها، غير أن الفكر الرافدي يرى أن السماء لم تكن سماءً واحدة، بل كانت تتكون من عدة سماوات، ومن النصوص الكثيرة التي ذكرت ذلك نص يعود إلى العصر الآشوري الحديث أشار إلى السماء بصيغة الجمع(في سماوات آنو الفسيحة[21])،ويقدر عددها بسبع سماوات أو سبع طبقات (الطبقة في الأكادية تِكبُtikbu[22]) أو سبع قبب، ويتطابق ذلك مع ما جاء في القرآن الكريم (الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا)[23].

وبحسب الفكر الرافدي الأجرام الآتية: عطارد، الزهرة، المريخ، المشتري، زحل، الشمس، القمر، كانت تتوزع على السماوات السبع[24]. وتختلف هذه السماوات في قيمتها ومكانتها عند الرافديين، فالسماء السابعة هي العليا، ولها القيمة الأكبر في نفوسهم، ففيها كان يقيم الإله آن ملك الآلهة[25]، وإليها صعد إتانا ملك كيش[26] الذي حكم في منتصف القرن الثامن والعشرون(2750 ق.م)، وأشارت إلى ذلك الأسطورة التي سميت باسمه،

[21]برغش،برغش، سعدون عبد الهادي، الطائي، غفران جعفر عزيز، الكواكب والنجوم ورمزيتها في الأدب العراقي القديم، مجلة كلية التربية–جامعة واسط، العدد الحادي والثلاثون، 2018، ص279.

[22]الجميلي، المعارف الجغرافية عند العراقيين القدماء، دار المشرق الثقافية، 2011، ص1.

[23]سورة الملك (الآية 3)

[24]برغش،المرجع السابق، ص274.

[25]رشيد، عبد الوهاب حميد، حضارة وادي الرافدين ميزوبوتاميا، دمشق، 2004، ص88.

[26]كريمر، صموئيل، الأساطير في بلاد ما بين النهرين، ترجمة يوسف داود عبد القادر، وزارة الثقافة والإعلام، دار الجمهورية، بغداد، 1968، ص53.

التي تقول: إن إتانا صعد إلى السماء ليحصل على نبتة الولادة[27] من عند آن إله السماء ليعالج بها زوجته العاقر لتنجب له ولداً يخلفه في الحكم[28]. ومما يدل على مكانتها وقيمتها صعود الآلهة إليها أثناء الطوفان، فقد وفرت الملاذ الآمن لها بعد أن أصابها الذعر، وأورد اللوح الحادي عشر من ملحمة جلجامش هذا الخبر:

حتى الآلهة ارتعبت من الطوفان

هربت وصعدت إلى أعلى سماء، سماء آنو[29]

وأما السماوات الأخرى، فقد كانت مقراً لآلهة أخرى، أقل مرتبة من آن\آنو، لكنها ذات قيمة كبيرة في المجمع الإلهي الرافدي، مثل سين وشماش وعشتار[30].

ويرى الفكر الرافدي أن السماوات السبع–التي كانت تأخذ شكل قباب– كانت محمولة على أساس يتموضع في نهاية الأرض في نقطة معينة من المحيط المائي الذي كانت تسبح الأرض فيه[31]. ويُفهم من ذلك أن الرافديين كانوا يؤمنون بأن الكون، ومنه السماء، لم يُخلق عشوائياً، بل كان يخضع إلى هندسة وترتيبات إلهية، ساعدت في بنائه بناءً محكماً، فلولا الأساس الذي كان يحمل السماء لسقطت السماء، ويمكن تشبيه السماء بالمبنى، والأرض بالأساس الذي كان يحمله ويحميه من الانهيار.

ومن خلال طبعة ختم سنعالجها لاحقاً، كان الفكر الرافدي يعتقد أن السماء لها باب تحرسه الآلهة، وربما كان هذا الباب هو أحد أبوابها، فمن المحتمل أنها كانت تضم أكثر من باب حسب المعتقدات الرافدية، والدليل على ذلك ما جاء في قصة آدابا، التي

[27]Mark J., the myth of Etanna, https://www.ancient.eu/article/224/the-myth-of-etana

[28]مرعي، عيد، معجم الآلهة والكائنات الأسطورية في الشرق الأدنى القديم، منشورات الهيئة العامة للكتاب، وزارة الثقافة، دمشق، 2018، ص33.

[29]قاشا، سهيل، تاريخ الفكر في العراق القديم، ط1، مكتبة الفكر الجديد، طرابلس، 2008، ص72.

[30]الجميلي، المرجع السابق، ص4.

[31]الجميلي، المرجع السابق، ص3.

تتحدث عن صعود هذا الأخير إلى السماء بمساعدة الإله أياإإنكي، الذي كان يرشده ويوجهه، ويتضح لنا ذلك من خلال المقطع الآتي، الذي يبرز توجيهات أيا له:

ستمضي إلى آنو (الإله آن)، الملك

وفي صعودك ستأخذ طريق السماء

وتقترب من بوابة آنو

وسيكون في حراستها تموز وجيزيدا[32]

ذكرنا أعلاه أن آن كان يسكن السماء السابعة، وهذا يعني أن الباب الذي كان سيدخل منه آدابا هو باب هذه السماء، مما يجعلنا نعتقد بأن السماوات الأخرى كان لكل منها باب، لأنها كانت تمثل مساكن لآلهة أخرى ذات شأن كبير في المجمع الإلهي الرافدي، فهل من المعقول أن تكون مساكن هذه الآلهة من دون أبواب؟ وبصرف النظر عن هذا الاستنتاج، هناك بعض المصادر ذكرت صراحة تعدد أبواب السماء، لكنها لم تذكر السموات التي كانت تتوزع عليها هذه الأبواب، فقد ورد ذلك في نص يتحدث عن هطول المطر من السماء: وفتحت أبواب السماء بماء منهمر[33]. وذكرت أسطورة الخليقة البابلية أن مردوك بنى للسماء أبواباً في الشرق والغرب، لتدخل منها الشمس، وترحل[34]. والمقصود من ذلك شروق الشمس وغروبها، أي أن شماش كان يدخل إلى السماء من باب وقت الشروق، وكان يرحل من باب آخر عند الغروب. وكل هذه الأدلة تثبت أن الفكر الرافدي كان يؤمن بوجود أكثر من باب للسماء.

[32]قاشا، تاريخ الفكر في العراق القديم، المرجع سابق، ص103.

[33]جميل، فؤاد، الطوفان في السومرية–الآشورية–العبرانية، المركز الأكاديمي للأبحاث، ط1، بيروت، 2014، ص17.

[34]هايدل، المرجع السابق، ص23.

رابعا: مكانة السماء في نفوس الرافديين:

كانت للسماء قيمة كبيرة في نفوس الرافديين، فهي مسكن لكثير من الآلهة المؤثرة في بلاد الرافدين، وفضلاً عن ذلك، كانت ترمز إلى السمو والعلو والرفعة، ومما يؤكد ذلك الإشارة المسمارية النجمة (دنجر) التي كانت تضاف إلى اسم الإله لتؤكد أنه اسم إله، وكانت تشير إلى السماء أيضاً[35]، وهذا يدل على اندماج فكرة الألوهية بالعلو والسماء، ونستنتج من ذلك أن السماء تدل على سمو وعلو الآلهة، وهي المسكن لبعض الآلهة أيضاً (انظر لاحقاً). وأوردت الكثير من الأساطير الرافدية إشارات ربطت بين السماء ومكانة الآلهة الرفيعة، ومن بينها تلك الأسطورة السومرية التي تتحدث عن فضائل إنليل على الكون، ومما جاء فيها:

مهابته ورفعته يأتيان بعد السماء

رفعته تصل إلى قلب السماء[36]

ومن خلال هذا النص نلحظ أن الفكر الرافدي جعل من السماء مقياساً لعل وهيبته ورفعته وإنليل، ونستنتج من ذلك أنها كانت ترمز إلى المكانة الرفيعة، والمرموقة.

وورد في إحدى القصائد السومرية التي مدح إنكي بها نفسه ما يدل على مكانة السماء المرموقة في نفوس الرافديين، ووردت فيها أشعار بصيغة التمني على لسانه، وتمحورت هذه الأشعار حول سومر، وتمنى إنكي أن تبلغ شجرتها عنان السماء، وأن يرفع جبروتها إلى السماء:

ليت شجرتك بلغت عنان السماء

ليت جبروتك يرفع إلى السماء[37]

---

[35] الماجدي، خزعل، الدين السومري، دار الشروق، ط1، عمان، 1998، ص32.

[36] معدى، المرجع السابق، ص17.

وفي قصيدة الحوار بين العبد وسيده وردت حكمة بصيغة سؤال، تُبين لنا القيمة الكبيرة للسماء في الفكر الرافدي: هل ثمة من طال قامة فبلغ السماء بيديه[38]؟ ونستنتج من هذه الحكمة بأن الإنسان له قدرات محدودة، ولا يستطيع أن يتجاوزها، واستخدم الفكر الرافدي علو السماء رمزياً للإشارة إلى هذه المسألة، فقد كان علوها إشارة إلى العظمة، والمكانة الرفيعة، التي لا يمكن لأحد أن يبلغها.

وفضلاً عن النصوص التي أشارت إلى مكانة السماء في نفوس الرافديين، ترجم هؤلاء مكانتها وأهميتها بتشييد المعابد المرتفعة والزقورات، فقد كانت هذه المباني ترمز إلى العلو والسمو، وباعتقادنا ما كان لها أن تأخذ هذه الرمزية لولا وجود السماء فوقها، فمن المحتمل أن الهدف من تشييدها على هذا النحو الاقتراب من السماء، لأنها كانت مسكناً للآلهة بحسب المعتقدات الرافدية القديمة. ونستنتج من ذلك أن القيمة الحقيقية مأخوذة من السماء وعلوها، وليس من المباني العالية ذاتها.

خامساً: وظائف السماء:

من خلال العودة إلى الأساطير الرافدية لاحظنا أن السماء كانت مركزاً لكثير من الأنشطة، التي ارتبطت ارتباطاً مباشراً بالآلهة التي كانت تتخذ منها مسكناً ومقراً لها. وحملت هذه الأنشطة الخير والشر للإنسان في آن معاً. وبحسب الفكر الرافدي، كان ذلك متوقفاً على رغبة آلهة السماء التي كانت تثيب الإنسان على طاعته لها، فتعطيه من خير السماء وبركاتها، وكانت تعاقبه في الوقت نفسه، بسبب عصيانه لها، مرسلةً له الكثير من المصائب السماوية، والتي ظهرت بأشكال مختلفة، سنحاول التفصيل بها لاحقاً.

[37]قاشا، سهيل، الحكمة السومرية في العراق القديم، دار بيسان، ط1، بيروت، 2011، ص45.
[38] قاشا، تاريخ الفكر في العراق القديم، المرجع سابق، ص130.

1- السماء مسكن للآلهة، ومقر لأعمالها:

قسم الرافديون آلهتهم إلى مجموعتين رئيستين: الأولى هي آلهة السماء، والأخرى هي آلهة الأرض والماء والأموات[39]. وما يهم في البحث الحالي آلهة السماءالتي اتخذت من السماء مسكناً لها، ومقراً لإدارتها، فمنها كانت تدير المهام الكونية التي أوكلت إليها. وبحسب ماورد في أسطورة الخليقة البابلية، بلغ عدد آلهة السماء 300 إلهاً:[40]عين مردوك للسماء ثلاث مئة إله[41]. وألمحت ملحمة جلجامش إليها دون أن تذكر عددها، وورد ذلك في اللوح الأول: آلهة السماء أرباب الحق[42].وفضلاً عن ذكر عددها، ذكرت أسطورة الخليقة البابلية أن السماء كانت تضم مساكن للآلهة، والتي أنشأها الإله مردوك ملك الآلهة، وبطل الأسطورة: في السموات أقام للآلهة مساكن[43].

وللدلالة على الموقع السماوي للآلهة، اتبع الفكر الرافدي طريقة تتمثل باستخدام الإشارة المسمارية السومرية النجمة، التي كانت تسبق اسم الإله، ويعود سبب استخدامها إلى كونها تشير إلى العلى أو السماء حيث يوجد الإله، وكما ذكرنا سابقاً، هذا يشير إلى سمو الآلهة وتفوقها على باقي الكائنات[44]، وإلى موقعها السماوي. وتتفاوت آلهة السماء في مكانتها وأهميتها، وسنحاول الإشارة إلى أكثرها أهمية، والتي كان لها التأثير الأكبر في حياة الناس.

---

[39] Margueron J.C.,Les mésopotamiens,Picard, Paris ,2000, p.329.

[40]ادزارد د.، بوب م.هـ، رولينغ ف.، المرجع السابق، ص105.
[41]قاشا، تاريخ الفكر في العراق القديم، مرجع سابق،ص94.
42حنون، نائل، ملحمة جلجامش، دار الخريف، ط1، دمشق، 2006، ص74.
[43]قاشا، تاريخ الفكر في العراق القديم، مرجع سابق،ص95.
[44]بوتيرو، المرجع السابق، ص256.

ويعدُّ آن من أعظم الآلهة التي سكنت السماء، فقد كان ملك الآلهة لفترة من الزمن، ثم بدأ يفقد هذه المكانة تدريجياً لصالح ابنه إنليل[45]. ومما يشير إلى موقعه السماوي اسمه الذي كان يعني السماء والعلا[46]. وأورد نص أكادي كلاماً ذكرته الإلهة مامي (أم الآلهة)، يشير إلى موقع آن السماوي: وعيّنت لآن سلطته العليا في السماء[47]. وفي ملحمة جلجامش جاء ما يؤكد ذلك: فاستدعى آلهة السماء رب أوروك[48]. أي أن آلهة السماء استدعت سيدها الإله آن/آنو[49]– الذي تركزت عبادته في أوروك– للاجتماع به. وكما ذكرنا سابقاً كان آن يقيم في السماء العليا (السماء السابعة)، مما يشير إلى مكانته المرموقة مقارنةً بالآلهة الأخرى.

وبعد ابنه إنليل من أهم الآلهة التي سكنت السماء، فهو إلهها وسيدها، وله عرش فيها[50]، ووصفته إحدى الأساطير السومرية بوصفٍ يدل على ذلك: سيد السماء إنليل الإله إنليل الملك[51].

ومن الآلهة الأخرى إنانا/عشتار، التي تُعد من أهم آلهة السماء بخاصة، والآلهة الرافدية بعامة، اشتهرت بصلاحياتها الواسعة، فقد كانت تلقب بملكة السماء[52]. وهناك

[45]معدى، المرجع السابق، ص13–14.
[46]مرعي، المرجع السابق، ص110.
[47]الشواف، المرجع السابق، ج2، ص21.
[48]باقر، ملحمة جلجامش، بغداد، 1975، ص39.
[49]الجبوري، علي ياسين، قاموس اللغة الأكادية–العربية، هيئة أبو ظبي للثقافة والتراث، 2016، ص50.
[50]جميل، المرجع السابق، ص19.
[51]الشواف،ديوان الأساطير، ج1، دار الساقي، ط1، 1996، ص 47– 48.
[52]هبو، أحمد ارحيم، تاريخ الشرق القديم (2)، بلاد ما بين النهرين (العراق)، دار الحكمة اليمانية، ط1، صنعاء، 1996، ص52.

نص اكتشف في مدينة ماري، يُنسب للملك شمشي أددالآشوري، ورد فيه ذكر للربة عشتار كملكة للسماوات وليس للسماء: الملكة عشتار التي تسيطرعلى كل السماوات[53].

ومن العوامل التي ساعدتها على تبوأ هذه المكانة في المملكة الإلهية السماوية، قربها من آن إله السماء، فقد ذكرت إحدى الأساطير أنها اقترنت به: معاً مع آن العظيم، ترقدين في فراشه، في مضجعه المقدس[54]. في حين ورد في ملحمة جلجامش أنها ابنته، وكان ذلك عندما اشتكت له من خذلان جلجامش لها: يا أبي إن جلجامش عزرني وأهانني[55].ولا يهم اختلاف الروايات حول هذه المسألة؛ لأن ذلك لا ينتقص من قيمتها كربة سماوية، ففي كلتا الحالتين كانت على علاقة قوية بسيد السماء آن، ولها موقع في السماء.وورد ذكرها في أسطورة سومرية مشيرةً إلى مقرها السماوي، وصلاحياتها الواسعة: كانت هي السيدة الممتطية الثور السماوي المقتدر، والشهيرة بصلاحياتها[56]. وورد في أحد النصوص ذكر لموقعها السماوي، ودورها في منح النور للسماء: إنانا سيدة السماء العظيمة، الشعلة الرائعة التي أضاءت السماء، النور السماوي الذي يضيء مثل النهار[57]. شُبهت بالشعلة وبالنور السماوي، لأن نجمة الزهرة (فينوس) هي أحد رموزها، وهذا يعني أنها كانت تمنح النور للسماء من خلالها، وهذا لا يشير إلى موقعها فحسب، بل إلى أهميتها أيضاً.وذكرت إحدى الأساطير أن إنانا كانت تمتلك قارباً سماوياً، تنقل

[53]Dossin G., Les archives économiques du palais de Mari, Syria XX, 1939, p.98.

[54]ادزارد د.، بوب م.ه، رولينغ ف.، المرجع السابق، ص24.

[55]باقر، ملحمة جلجامش، المرجع السابق، ص63.

[56]الشواف، المرجع السابق،ج1، ص86.

[57]Pottier J.,Danse, sacré et érotisme : étude anthropocosmogonique des pratiques de mouvement en Mésopotamie, université du Québec à Montréal, service des bibliothèques, 2018, p.173.

به البضائع السماوية للإله نانا/سين[58]، ولهذه الإشارة دور في تحديد موقع إنانا السماوي ومسكنها، كما وأنها تخبرنا عن أحد أنشطتها السماوية، التي مارستها بحسب الفكر الرافدي القديم.

وكان إله الشمس أوتو/شماش يسكن السماء أيضاً، فقد وصفته ملحمة جلجامش بشماش السماوي، وقد ورد ذلك في اللوح الأول، وتحديداً في الجزء الذي يتحدث عن خلق الآلهة لجلجامش، وقد جاء فيه: حباه شمش السماوي بالحسن[59]. وورد ذكره في إحدى الأساطير السومرية التي تحدثت عن دوره بتزويد أراضي ديلمون بالمياه الحلوة:من مقره السماوي أخرج أوتو (شماش) المياه الحلوة من الأرض[60]. ونفهم من هذين النصين أن أوتو/شماش كان يسكن السماء، وكان يدير ما أوكل إليه من مهام منها. ومن غير المستغرب أن تكون السماء مسكناً له، فهو إله الشمس، والشمس مقرها السماء.

ولم يكتف الفكر السومري بذكر موقعه، إنماأعطاه صورة فكرية، أسطورية، متأثرة بطبيعة الشمس التي تظهر وتختفي خلال اليوم. فبحسب الفكر السومري، كان يظهر في قبة السماء في النهار، ويقطعها تجوالاً، ويختفي في الليل راكناً إلى حضن البحر، ليظهر مرة ثانية من خلف الجبال صباح اليوم التالي[61]. وألمحت ترنيمة أكادية إلى حركته على نحو مشابه لما جاء في الفكر السومري:

لا تتوقف عن اجتياز السماء بدقة،

وكل يوم تقيس الأرض اللامتناهية،

[58]ادزارد د.، بوب م.هـ، رولينغ ف.، المرجع السابق، ص153 – 154.
[59]باقر، ملحمة جلجامش، المرجع السابق، ص38.
[60]الشواف،المرجع السابق، ج1، ص28.
[61]ادزارد د.، بوب م.هـ، رولينغ ف.، المرجع السابق، ص76.

تروح وتغدو في البحر الشاسع الذي لا نهاية له[62]،

وإضافة إلى الآلهة السابقة، سكن السماء إله القمر نانا/سين، ومن الطبيعي أن يتبنى الفكر ومن آلهة السماء الإله إيرا، إله الطاعون والحرب والدمار في بلاد الرافدين، ويُعد مع الإلهة جيرا من آلهة الليل، وكانا ينوبان عن إله القمر وإله الشمس عند غيابهما من السماء[63]. ونستنتج من ذلك أن آلهة السماء كانت تتبع نظاماً محكماً في مقرها السماوي، وكانت تتبادل المهام حسب الظروف.

الرافدي هذه الفكرة، لأن السماء هي التي تحتضن القمر، وتحتضن غيره من الأجرام. وقد نوهت أسطورة الخليقة البابلية إلى مسكن سين السماوي:وفي مستهل الشهر إذ تطلع في السماء[64].

وكانت السماء مسكناً لمردوك(ملك الآلهة البابلية) أيضاً، وقد ورد ذلك في أحد النصوص: في السماء أنت الأسمى، وفي موضع آخر من النص وردت إشارة أخرى: وأنت الممسك بحدود السماء المزدانة بالنجوم[65].

2- السماء مصدر الخير والبركة والنعمة:

لقد تبلور لدى الرافدي القديم مفهوم بأن السماء هي مصدر الخير والبركة، فهي أكثر قداسة من الأرض، ومما يؤكد ذلك ما جاء في التراث البابلي القديم: اللعنة تخرج من البحر مركز الشياطين، والدعوة الطيبة من السماء[66]. وقد يكون السبب الذي جعل

---

[62] بوتيرو، المرجع السابق، ص255.

[63] مرعي، المرجع السابق،ص61.

[64] برغش، سعدون عبد الهادي، الطائي، غفران جعفر عزيز، المرجع السابق، ص277.

[65] يحيى، أسامة عدنان، الآلهة في رؤية الإنسان العراقي القديم، دراسة في الأساطير، آشوربانيبال للكتاب، ط1، بغداد، 2015، ص117.

[66] نعمة، حسن، موسوعة ميثولوجيا وأساطير الشعوب القديمة ومعجم أهم المعبودات القديمة، دار الفكر اللبناني، بيروت، 1994، ص32.

الرافديين يتبنون هذا المعتقد التأثير الكبير للسماء في حياة الناس ومعيشتهم، فمنها كانت تهطل الأمطار، وتتساقط الثلوج إلى الأرض، فترتوي المحاصيل، وتُملأ الجداول والأنهار، وتتفجر الينابيع. وعليه، فالسماء هي مصدر النعمة التي كان الإنسان يتنعم بها، فلولا الأمطار الهاطلة منها لهلك البشر، وماتت الحيوانات ويبست الزروع.وقد أشارت إحدى القصائد السومرية– التي تمجد إنليل– إلى هذه النعمة، وبينت فضل السماء على الأرض: من السماء ينزل الفيض إلى الأرض[67].

وكان عدد من الآلهة يتحكم بهذه النعمة، ومن أهمها إله الهواءإنليل الذي أشارت إحدى القصائد إلى دوره في هطول المطر من السماء إلى الأرض. ومما جاء فيها:بدون إنليل، الجبل العظيم، ما كان بالإمكان تشييد أي مدينة، وفي السماء ما كانت السحب لترسل أمطارها[68]. وكان إنليل يقوم بهذا الدور، لأنه هو الذي كان يتحكم برياح السماء التي كانت تُكون الغيوم المحملة بماء المطر.

وبحسب المعتقدات الرافدية القديمة، كان إله الطقس السماوي إشكور يؤدي دوراً في جلب الخير والنعمة للأرض، ويظهر ذلك من خلال لقبه الثور اللامع العظيم[69]، الذي يشير إلى وظيفته في إرسال المطر للناس؛ لأن الثور كان يرمز للخصوبة في المعتقدات الدينية الرافدية. ونعتقد أن الهدف من إعطائه صفة اللمعان، الإشارة للبرق الذي كان يلمع في السماء ممهداً لهطول المطر، ويبدو أن هذه القضية كانت من واجبات هذا الإله. وأخذ لقباً آخر يشير إلى الدور نفسه الذي كان يقوم به: سيد الخصوبة، السيد

[67]كريمر ،صموئيل، إيناناودموزي، طقوس الجنس المقدس عند السومريين، ترجمة نهاد خياطة، دار علاء الدين، ط2، دمشق، 1993، ص72.

[68]رو، جورج، العراق القديم، ترجمة وتعليق حسين علوان حسين، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، 1984، ص134.

[69]مرعي،المرجع السابق، ص53.

الذي يركب العواصف، أسد السماء70. ومما يجذب الانتباه في هذا اللقب أسد السماء، فكما نعرف يمتاز الأسد بقوته، وعلى ذلك، ربما يكون الهدف من إعطائه هذا اللقب إبراز قوته، وقدرته على إغاثة الأرض بماء المطر.ومن جهة أخرى، يتصف الرعد بصوته القوي المخيف، ومن عادة الأسد أن يزأر مصدراً صوتاً قوياً مخيفاً أيضاً، وقد يكون الزئير رمزاً لصوت الرعد الذي كان يصدره إشكور. وهذه الأنشطة كلها أنشطة سماوية، كانت تعود بالخير والبركة على الأرض.

واستمرت عبادة إله الطقس عند الأكاديين والبابليين والآشوريين، وعُرف باسم أدد أو هدد، وكان يقوم بدور لا يقل أهمية عن دور إنليل، فمن خلال وظيفته كإله للطقس أظهر السماء كمصدر للخير والبركة، وورد هذا في نص– ينسب إلى حمورابي ملك بابل (1792 – 1750 ق.م) – يصف أدد ب: مراقب قنوات السماء والأرض[71]، فمن مهامه التحكم بالفيضان في السماء والأرض[72]. ووردت إشارات مماثلة في نقش مكتوب بالآرامية والآشورية، يعود إلى حاكم بيت بخياني الآرامية، يحتوي على خطاب من هذا الحاكم إلى الإله أدد: إلى الإله أدد منظم مياه السماوات والأرض، ممطر الغنى، مانح الرعي والمسقي لأناس كل المدن، مانح الحصص والقرابين للآلهة أخوته[73]. وباختصار شديد يظهر لنا هذان النصان أن نعمة الماء كانت تأتي من السماء إلى الأرض بإشراف الإله أدد الذي كان يقوم بدور المنظم لها.

---

[70] امرعي،المرجع السابق، ص53.
[71] مرعي، عيد، عبادة آلهة الخصوبة في الشرق القديم، وزارة الثقافة، دمشق، 2016، ص69.
[72] باقر، طه وآخرون، تاريخ العراق القديم، ج2، بغداد، 1980، ص17.
[73] فاروق، اسماعيل، اللغة الآرامية القديمة، جامعة حلب، 1997، ص189.

ومن النعم التي كانت السماء تهبها للأرض، نور الشمس، الذي كان يجلب الدفء للكون، ويخلصه من الظلام[74]. وكان شماش هو المسؤول عنه، وورد ذلك في ترنيمة أكادية تمجده:

يا شمش، منير السماء كلها، مضيء الظلمات،
يا راعي هذا العالم وما تحته
إن شعاعك يكتنف العالم مثل شبكة،
وحتى أبعد الجبال وتنير كل ظلام.
ومن كبد السماء تسند اتزان الكون
إنك ترعى الكائنات الحية جميعها[75]

ونستنتج من هذا النص أن السماء هي مصدر النور، فالشمس هي أحد أجرامها، واتخذ إلهها شماش من السماء مقراً له، وكانت كل الكائنات الحية بحاجة إلى هذا النور الذي يبثه من السماء إلى كافة أرجاء الكون.

3- السماء موطن الملكية:

أضفى الرافديون على الملكية صبغة دينية سماوية، إذْ ساد لديهم اعتقاد أن الملكية كانت موجودة منذ الأزل في السماء قبل أن تمنحها الآلهة للبشر[76]. وفي عصر السلالات السومرية الباكرة(2900 – 2350) هبطت الملكية من السماء(مسكن الآلهة) إلى الأرض[77]، وكانت تنتقل من هذه المدينة إلى تلك في فترات زمنية مختلفة خلال هذا

[74]قاشا، سهيل، تاريخ الفكر في العراق القديم، المرجع سابق، ص49.
[75]بوتيرو، المرجع السابق، ص255.
[76] الطائي، محمد حمزة، أهم شارات الملكية في العراق القديم، مجلة آداب الرافدين، العدد 50، جامعة الموصل، 2008، ص2.
[77]الشواف،المرجع السابق، ج1، ص16

العصر. وقد استخدم الرافديون– في هذه الفترة – حدث الطوفان الذي أصاب بلادهم، كمرحلة فاصلة بين مرحلتين أساسيتين (ما قبل الطوفان، وما بعده)، وفي كل مرحلة كانت تهبط الملكية من السماء إلى مدينة، ففي الفترة التي سبقت الطوفان هبطت الملكية إلى مدينة إريدو، وأثناء الطوفان صعدت إلى السماء، وبعد انتهاء الطوفان هبطت من جديد إلى الأرض، لكن هذه المرة إلى مدينة كيش[78]. وقد أشار النص الآتي إلى ذلك:

هبطت الملوكية من السماء فكانت أريدو مركز
الملوكية وحكم في أريدوآلوليم ملكاً
ثم جاء الطوفان (وجرف البلاد) وبعد الطوفان
هبطت الملوكية (مرة ثانية) وحلت في كيش
وصارت كيش مركز الملوكية[79]

والمقصود بهبوط الملكية من السماء إلى الأرض قيام الآلهة – التي كانت تسكن السماء– بوهب السلطة للإنسان[80]. ولدينا العديد من النصوص – التي تمجد بعض الآلهة الرافدية–تثبت إيمان الرافديين بهبوط الملكية من السماء. أحدها يمجد إنليل، وقد جاء فيه: لولا إنليل لما تنصب الملك[81]. أي أن إنليل الذي كان يسكن السماء هو الذي كان يمنح السلطة للملوك، وكان يضع التيجان المقدسة على رؤوسهم[82]ولم تكن مسألة منح السلطة للملوك مقتصرة على إنليل، إذْ أورد أحد النصوص أن عشتار هي التي

[78]الطائي، المرجع السابق، ص1.
[79]باقر، طه، مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة، ج1، دار الوراق، ط1، بغداد، 2009، ص319–320.
[80]محمد، هيفاء أحمد عبد الحاج، ألقاب حكام وملوك العراق القديم، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة الموصل، 2007، ص165.
[81]معدى، المرجع السابق، ص17.
[82]رو، المرجع السابق، ص133.

منحت السلطة لإيناتوم في حكم كيش ولاجاش :أعطته (أي عشتار) ملكية كيش بالإضافة إلى ملكية لاجاش[83]

وكانت الآلهة تمنح الملوك شارات الملكية أثناء تنصيبهم، وأتت بعض النصوص على ذكرها، ففي نص يمجد الإله آن/آنو إله السماء، ورد ذكر لهذه الشارات، وأشار أيضاً إلى النظام الملكي: يا صاحب الصولجان، والخاتم، يا من تدعو إلى الملكية، يا رب التاج المجيد[84]وهناك نص آخر ورد في أسطورة إيتانا، ذكر شارات الملكية التي تخص ملك السماء آن، ومن بينها شارات لم يذكرها النص السابق: في ذلك الوقت لم يكن قد لبس تاج وكان الصولجان ورباط الرأس والتاج والعصا مودعة في السماء أمام آنو[85]. وعلى الرغم من أن هذين النصين لا يشيران إلى الملوك البشر، بل إلى آن كملك للملكة السماوية الإلهية، وإلى شارات الملكية التي تظهره كملك للآلهة، إلا إنهما يعدّان دليلاً مؤكداً على إيمان الرافديين بأن الملكية هبطت من السماء؛ لأن المملكة البشرية التي كانت تحكم الناس في الأرض هي صورة مصغرة عن المملكة السماوية الإلهية التي كانت تُسير أمور الكون[86]، وبما أن الآلهة هي التي خلقت البشر فالمملكة البشرية هي صناعة إلهية، وبما أنها صناعة إلهية فالملوكية وشاراتها هبطت من السماء. ولدينا نص آخر يدعم هذا الاعتقاد، ويؤكد أن شارات الملكية هي هبة سماوية للملوك البشر، ومما جاء فيه:

[83]-FrankfortH:,Kingship and Gods , the university of Chicago press, London, 1948, p. 301.

[84] سليم، أحمد أمين، حضارة العراق القديم، دار المعرفة الجامعية، الاسكندرية، 2011، ص331.

[85]حمزة الطائي، المرجع السابق، ص2.

[86]موسى، رشا، التحولات الشكلية والمضامينية لصورة الآلهة عشتار في طبعات الأختام الأسطوانية العراقية القديمة، مجلة جامعة بابل للعلوم الإنسانية، المجلد 27، العدد 5، 2019، ص192.

عندما لم يكن على الأرض من يحمل التاج والصولجان
بحثت عشتار عن راعٍ للرعية
بحثت عن ملك يحكم الشعوب[87]

وبصرف النظر عن كل الأدلة السابقة، التي تُثبت أن الملكية صناعة إلهية سماوية، لدينا أدلة فنية مادية تدعم هذه المسألة وتؤكدها، وتُثبت استخدام الملوك لهذه الشارات، وباستخدامهم لها يمكن لنا الجزم بأن الملكية ورموزها أتت من السماء، فعلى سبيل المثال الخاتم–الذي ورد في أحد النصوص السابقة– كان يُقتنى من قبل الملوك وكانوا يستخدمونه في حياتهم اليوميةلأغراض إدارية، واقتصادية، ومن الأمثلة على ذلك ملك ماري إشغي–ماري (نهاية عصر السلالات الباكرة الثالث)، الذي كان يقتني ختماً، نُقش عليه مشهد عسكري[88]. ويقدم لنا العصر البابلي القديم (2004– 1595)، رموزاً أخرى، تتمثل بالعصا والحلقة، اللتين ظهرتا بمشهدين فنيين شهيرين، أحدهما يجسد شماش إله العدالة جالساً على عرشه، كان يقدم العصا والحلقة لحمورابي البابلي (الشكل1)، والآخر يمثل عشتار وملك ماري في وضعية الوقوف، وكانت عشتار تنصب هذا الملك ملكاً على مملكته بمنحه الشارتين السابقتين. وإضافة إلى التاج، أتت نصوص التنصيب

[87]زايبرت، الزة ، رمز الراعي في بلاد الرافدين ونشوء فكرة السلطة والمملكة، ترجمة محمد وحيد خياطة، مكتبة الفيحاء، 1988، ص15–16.

[88] Beyer D., « Les sceaux de Mari au IIIe millénaire, Observations sur la documentation ancienne et les données nouvelles des villes I et II», AkhPurattim 1, 2007, fig.17-18 https://books.openedition.org/momeditions/386

الآشورية على ذكر العصا والحلقة كشارات ملكية[89]، والتي كانت تُسلم إلى الملك الآشوري أثناء تنصيبه.

4–السماء مصدر العدالة:

تعدُّ السماء مصدراً للعدالة بين البشر، وارتبط ذلك بإله الشمس السماوي شماش، الذي كان إلهاً للعدل[90]، فهو إله الرحمة[91]، الذي يقضي بين البشر، ويصدر القرارات لهذا الغرض، وقد استمد هذا الدور من طبيعة الشمس التي يفيض ضياؤها على الأرض[92] مبددة الظلام، ومحولة إياه إلى نهار يشع نوراً كاشفاً كل مستور[93]. أي أن نوره الذي يبثه من السماء، هو الذي يكشف الحقيقة، فينصف المظلوم، ويرد لكل ذي حقٍ حقه. وقد ورد في إحدى الصلوات الموجهة له:

سيدي شمش،

أنت السيد الكبير الذي يبت في قضية إله وإنسان[94]،

وهناك نص آخر يتضمن دعاء لشماش، يبين لنا دوره في إصدار الأحكام:

شمش أنت القاضي،

احكم في قضيتي،

---

[89] Démare-Lafont S. «La majesté royale en Mésopotamie. Une déambulation dans les salles orientales du Louvre»,inA. Helmis et al. éd.,Vertiges du droit. Mélanges franco-helléniques à la mémoire de Jacques Phytilis, Paris, 2011, p.158.

[90] CharpinD., Civilisation mésopotamienne: Les temples en Mésopotamie : approche fonctionnelle, p.433. http://www.college-de-france.fr/site/dominique-charpin/course-2014-2015.htm.

[91] قاشا، تاريخ الفكر في العراق القديم، المرجع السابق، ص49.

[92] رو، المرجع السابق، ص131.

[93] برغش، المرجع السابق، ص279.

[94] المرجع نفسه، ص279.

أنت الذي تصدر الأحكام،
أصدر حكمك في دعوتي[95]،

ومما ساعد شماش على القيام بمهمته موقعه السماوي، فمن خلاله يستطيع أن يرى كل ما يجري في الأرض في النهار، وبذلك يتمكن من كشف الجرائم وكل ما هو سيء، وأشارت إحدى الترنيمات إلى ذلك: أنت الذي تسلط الضوء على قضية السيء والمجرم[96].

ومما يؤكد فكرة أن السماء هي موطن العدالة شارات السلطة التي كانت تمنحها آلهة السماء للملوك، إذْكان لهذه الآلهةهدف سامٍ من ذلك،يتمثل بإقامة العدل بين الناس،ومن أهم الشارات الصولجان، فقد ورد ما يدل على أهميته– في إقامة العدل– على لسان حمورابي في مقدمة قانونه، الذي نُقش على مسلة الشريعة :لقد دعاني الآلهة العظام، فأنا الراعي المحسن ذو الصولجان العادل[97].ونستنتج من هذا النص أن الصولجان الذي منحته آلهة السماء لحمورابي كان لإقامة العدل بين الناس. وذكرنا أعلاه أن إحدى القطع الفنية أظهرت شماش وهو يعطي حمورابي العصا والحلقة كشارتين ملكيتين، ويُعتقد أنهما ترمزان إلى العدالة الإلهية[98]، التي كانت تمنحها الآلهة السماوية للملوك ليمارسوها على البشر.

---

[95] المرجع نفسه، ص279.

[96] CharpinD.,op.cit., p.438.

[97] بوتيرو، المرجع السابق، ص219.

98Démare-Lafont S.,op.cit, p.163.

واقترنت العدالة السماوية باسم آلهة أخرى، مثل إنكي، فقد أشارت إلى ذلك إحدى القصائد السومرية التي صيغت بطريقة تظهره وكأنه هو الذي يتحدث، مستخدماً كلماته للمدح بنفسه:

أنا الذي أنظم العدالة مع الملك (آن) في عرشه[99]،

ويعدُّ هذا النص دليلاً إضافياً على أن العدالة هي إبداع سماوي حسب الفكر الرافدي، صنعتها الآلهة السماوية، وأرسلتها إلى البشر لإقامة مجتمع يرتكز على أسس من العدل، لتنتظم فيه حياة العباد.

4- السماء مصدر المصائب والخوف والعذاب:

ذكرنا سابقاً أن السماء كانت–حسب الفكر الرافدي القديم– مصدر الخصب والخير والنعمة، فلولا الأمطار التي تهطل منها إلى الأرض لما تمكنت الكائنات الحية من الحصول على قوتها والبقاء والاستمرار على سطحها.

غير أنها كانت– في الوقت نفسه – مصدراً لكثيرٍ من المصائب والمحن التي أصابت الأرض، ومن يعيش عليها، فهي في كثير من الأحيان منبعٌ للخوف والذعر والموت والدمار.ولن نكون مبالغين إذا قلنا: إن بعض الآلهة السماوية التي كانت تجلب الخير والنعمة للبشر هي التي كانت تتسبب بهذه المصائب، إذْ إن معظم الآلهة الرافدية كانت تحمل صفات الخير والشر، فتارة تظهرُ بوجه الخير، وتارةً أخرى تظهر بوجهها الشرير.

ويُعد الطوفان من أعظم المصائب التي أصابت الأرض في بلاد الرافدين، وتذكر الأساطير أن سببه المطر الغزير الذي هطل من السماء: وفتحت أبواب السماء بماء

[99] قاشا، الحكمة السومرية في العراق القديم، المرجع السابق، ص36.

منهمر،وغطى الطوفان الأرض جميعاً[100].وذهب ضحيته الكثير من البشر، وقد جاء ذلك على لسان عشتار حسب ما ذكرت الرواية السومرية: وعلا نحيب (سيدة الآلهة) شجياً، وقالت: (لقد تحولت الخليقة القديمة إلى طين لازب). وغدا البشر الذين ولدتهم يملؤون المياه، مثل بيض السمك[101].وتتفق معظم الروايات (سومرية وأكادية وبابلية) على أن الإله إنليل هو الذي أخذ قرار الطوفان[102]، ووافقت الآلهة العظام عليه في جلستها لإهلاك البشر، ومن الأسباب التي دفعت الآلهة إلى إحداث الطوفان تقصير البشر بواجباتهم تجاه الآلهة[103].

ومن الأمثلة الأخرى على الكوارث ذات المصدر السماوي، الثور السماوي الذي وردت قصته في اللوح السادس من ملحمة جلجامش، والتي جاء فيها أن عشتار وقعت في غرام جلجامش، إلا أنه صد عنها[104] موجهاً لها جملة من الاتهامات، ومنها عدم إخلاصها لعشاقها الذين أوقعتهم في حبائلها (دموزي، والطير المبرقش، والأسد، والراعي، وإشولانو حارس بستان أبيها آن)[105]، وعندما سمعت ذلك أرادت الانتقام منه، وقالت لأبيها آن:

أعطني ثور السماء، لقتل جلجامش
إن لم تعطني ثور السماء
حطمت أبواب العالم السفلي
وانتزعت الأعمدة، وتركت البوابات مفتوحة على مصاريعها

[100] جميل، فؤاد، الطوفان في السومرية–الآشورية–العبرانية، المركز الأكاديمي للأبحاث، ط1، بيروت، 2014، ص17.
[101] المرجع نفسه، ص17.
[102] قاشا، تاريخ الفكر في العراق القديم، المرجع سابق، ص53.
[103] مرعي، معجم الآلهة والكائنات الأسطورية في الشرق الأدنى القديم، المرجع السابق، ص23.
[104] قاشا، تاريخ الفكر في العراق القديم، المرجع سابق، ص50.
[105] ادزارد د.، بوب م.هـ، رولينغ ف.، المرجع السابق، ص124–125.

وجعلت الموتى يقومون ويلتهمون الأحياء
فيصير الأموات أكثر عدداً من الأحياء[106]
فرد عليها أبيها آن قائلاً:
لو فعلت ما تطلبينه مني
لحلت سبع سنوات عجاف
فهل جمعت القمح الذي يكفي البشر
وتركت العشب ينمو ليكفي الدواب
فقالت عشتار:
أبتاه لقد خزنت الغلال للناس
وجمعت العلف للماشية
وبعد أن سمع آنو كلامها
سلم عشتار مقود الثور السماوي
فأخذته لتنزل بالثور إلى الأرض
وقادته إلى ربوع أوروك
هبط الثور السماوي فنشر الفزع
أهلك في خواره مائة إنسان
أهلك فوق ذلك مائتين، ثلاثمائة
وفي خواره الثاني قضي على مائة آخرين
وعلى مائتين كذلك ثلاثمائة[107]

[106]مكاوي، عبد الغفار، ملحمة جلجامش، الهيئة العامة لقصور الثقافة، آفاق علمية، ط1، 2003، ص153–154.
[107]مكاوي، المرجع السابق، ص154–155.

وورد في اللوح السادس أيضاً أن الثور السماوي هاجم أنكيدو صديق جلجامش، فوقف جلجامش إلى جانبه، وتقاسم الصديقان العمل لقتله، فأمسكه أنكيدو ثم طعنه جلجامش طعنة قاتلة، وغرس حسامه بين السنام والقرنين، وبعد أن أجهزا عليه اقتلعا قلبه، وقدماه قرباناً إلى الإله شماش[108].

ونستنتج من هذا العرض أن السماء كانت مصدراً لبلاء عظيم أصاب أوروك، يتمثل بالثور السماوي الذي كان يرمز –على الأرجح– إلى موجة قحط وجفاف حلت بأوروك في فترة من الفترات، والدليل على ذلك ما قاله آن لعشتار :لو فعلت ما تطلبينه مني لحلت سبع عجاف.وورد في اللوح السادس من الملحمة إشارات أخرى، مؤكدة، تثبت أن الثور السماوي كان يرمز إلى القحط والجفاف الذي حل بأوروك:

حين وصوله إلى بلاد أوروك (أي الثور السماوي)

يبست الأشجار، أجمات القصب، والأهواز.

ورد النهر، فانخفض مستوى النهر سبعة أذرع[109].

ومن خلال هذا النص نلحظ أن مستوى مياه النهر انخفض، والمقصود هنا –على الأغلب– نهر الفرات؛ لأن أوروك كانت تقع على ضفته الشرقية، وربما حدث ذلك بسبب قلة الأمطار والثلوج التي كانت تغذيه، وانعكس هذا الانخفاض على النباتات التي يبست بسبب العطش.

ولم يقتصر جلب الجفاف من السماء إلى الأرض على آن وعشتار، بل قامت به آلهة أخرى، مثل أدد إله الطقس الأكادي الذي كان يحبس الأمطار عن الأرض أحياناً،

[108] باقر، ملحمة جلجامش، المرجع السابق، ص64.
[109] حنون، المرجع السابق، ص160.

مما سبب القحط، والجفاف، فظهرت المجاعات[110]. ويظهر ذلك جلياً من خلال لقبه سيد حواجز السماء[111]، أي أنه كان قادراً على بعث الأمطار بفتح هذه الحواجز، أو حبسها عن البشر بإغلاقها. و يبدو ذلك واضحاً من خلال النص الآتي:

في الأعالي جعل حدد (أدد) مطره نادراً،

و في الأسفل احتجز الفيضان،

لذلك فإنه لم ينبثق من الينابيع[112].

وكانت السماء مصدراً لمصيبة كبرى تصيب الأرض، ألا وهي ظاهرة خسوف القمر، وعندما كانت تحدث هذه الظاهرة، كان الرافديون يشعرون بالرعب، وربطت الأساطير القديمة بينها وبين حدوث الزلازل، والأوبئة، أي إنها كانت إشارة لحدوث هذه المصائب. ووصفت مرثية أور هذه الظاهرة مشيرة إلى حالة الخوف التي أصابت الناس عند حدوثها:

اسودت السماء بظلمة حالكة وأصدت الجبال

واختفى القمر وسط السماء وعاش الناس في رعب[113]

وكبقية الظواهر الطبيعية، عولجت هذه المسألة معالجة فكرية، إذْ عزاها الفكرالرافدي إلى قوى ظلامية شيطانية، قامت بمهاجمة القمر، فاستحوذت على نوره، وأصبح الكون مظلماً. وتناولت هذه الظاهرة أسطورة تعود إلى العصر الآشوري الحديث(912–612 ق.م) مبينةً دور القوى الشيطانية في حدوثها، وانعكاساتها على نور القمر، ونتائجها السلبية على البلاد:

---

[110] ادزارد د.، بوب م.ه، رولينغ ف.، المرجع السابق، ص79.

[111] المرجع نفسه، ص79.

[112] محمود عبد العزيز، كارم، أساطير العالم القديم، ط1، الجيزة، 2007، ص164.

[113] برغش، المرجع السابق، ص279.

في سماوات آنو الفسيحة،
إنهم هناك بوقاحة ولا خصم لهم (الشياطين السبعة)،
إذ ذاك، هم الآلهة الأشرار هاجموا في قبة السماوات.
مهاجمين سين، النير السماوي، وأحاطوه بوقاحة من كل جهة،
سين الذي يحب البشرية (يجلب الآن) اضطرابات للبلاد،
فتروه مضطرب وقد أصبح صامتاً وخائر القوى.
إنهم الآلهة الأشرار، رسل آنو،
هم عملاء الشر يخبطون في كل موضع في الليل،
هم في كل مكان ودوماً يبحثون عن الشر،
ومن وسط السموات، مثل ريح، انطلقوا نحو البلاد[114]

وبحسب الفكر الرافدي، كانت السماء مصدراً لرياح قاتلة ومدمرة،لها آثارٌأليمة شبيهة بالآثار التي كان يتركها الثور السماوي، والطوفان. ورد ذكرها في أسطورة الخليقة البابلية، والتي جاء فيها أن حرباً نشبت بين تيامات زوجة الأبسو (أبو الآلهة)، وبين الإله البابلي مردوك، وقبل نشوب المعركة بينهما، خلقت تيامات أحد عشر كائناً ضخماً أسطورياً لتحقق الانتصار، وفي الوقت ذاته جهز مردوك حملته متسلحاً بالرياح السماوية الشريرة[115] وأسلحة سماوية أخرى (الإعصار والصواعق)[116]، وبنشوب المعركة بينهما

[114]برغش، المرجع السابق، ص278 – 279.
[115]هايدل، المرجع السابق، ص22.
[116]روتن، مارغريت، تاريخ بابل، ترجمة زينة عازار وميشال أبي فاضل، دار منشورات عويدات، ط1، بيروت–باريس، 1984، ص127.

تمكن مردوك من تسليط الرياح الشريرة على تيامات، ثم قام بقتلها وقتل الكائنات الأسطورية الضخمة[117].

ومما لا شك فيه أن هذه الرياح التي ألبسها الرافديون ثوباً فكرياً في أسطورة الخليقة البابلية كان لها أساس واقعي في حياتهم، ومما يؤكد ذلك الأسماء التي أخذتها الرياح في ملحمة جلجامش (جنوبية، شرقية، شمالية، غربية، صرصر...إلخ)، فقد ورد ذكرها بشيء من التفصيل في اللوح الخامس، والتي استخدمها إله الشمس شماش كسلاح لمحاربة خمبايا الذي كان يريد قتل جلجامش وصديقه أنكيدو:

الريح الجنوبية، الريح الشمالية، الريح الشرقية، والريح الغربية،
الهبوبة، الهبوبة المعاكسة، العاصفة الجافة، العاصفة الممطرة، والزوبعة،
الريح الشريرة، الصرصر، الهوجاء، والنكباء.
لقد هبت الرياح الثلاث عشرة، واسود وجه خمبايا.
لم يعد قادراً على أن يهجم للأمام، ولا يرفس للخلف.
فوصل سلاح جلجامش إلى خمبايا[118].

ومن خلال عرضنا لهذه الرياح نلحظ أن الفكر الرافدي–في ملحمة جلجامش– وظف الرياح التي عرفتها بلاد الرافدين بطريقة مماثلة للطريقة التي استخدمتها أسطورة الخليقة البابلية، ففي كلتا الحالتين استُخدمت الرياح سلاحاً فعالاً بيد الآلهة.

سادساً–السماء والفن :

باستثناء إحدى القطع الفنية التي مثلث السماء رمزياً حسب افتراض ضعيف افترضه أحد الباحثين (انظر لاحقاً)، بحسب ما يتوفر لدينا من معلومات ليس ثمة دلائل قطعية

[117]ادزارد د.، بوب م.ه، رولينغ ف.، المرجع السابق، 113–114.
[118]حنون، المرجع السابق، ص144.

تؤكد لنا قيام الفنان الرافدي بتمثيل السماء تمثيلاً واقعياً كما كان يراها الإنسان الرافدي، غير أنه أنتج الكثير من المشاهد التي تصور مواضيع ترتبط بالسماء، وهذه المواضيع مبعثرة، ولا رابط بينها، فلكل منها رمزية خاصة، تفصح عن فكرة معينة، كان الفكر الرافدي يسعى للترويج لها مستعيناً بأنامل الفنانين. وعلى الرغم من غياب الأدلة الواضحةالتي تثبت إثباتاً مؤكداً تصوير السماء واقعياً أو رمزياً، إلا أن قراءة بعض المشاهد الفنية قراءة متأنية تشير إلى احتمالية تصويرها على نحو يختلط فيه الواقع بالرمز، وسنشير إلى ذلك لاحقاً.

بدايةً سنتطرق إلى القطعة الفنية التي جسدت السماء رمزياً من وجهة نظر أحد الباحثين، إنها مسلة صغيرة، اكتشفت في معبد نينخورساج في ماري، وتؤرخ بعصر السلالات الباكرة الثاني (2750 – 2650 ق.م)، مصنوعة من الحجر الكلسي، وتتصف بشكلها المستطيل المتطاول، وتبلغ أبعادها 35 x17,5 سم، وتقدر سماكتها ب 3 سم. وتتكون من ثلاثة أقسام، القسم العلوي مكون من صفين من المثلثات المتداخلة، يفصل بينهما خط مستقيم، ويضم القسم الأوسط أشكالاً مختلفة، أحدها يجسد ربة من ربات الخصوبة بشكل مختزل جداً ورمزي، إذْ لم يظهر منها إلا العينان، والحاجبان والمثلث الأنثوي، ويضم المشهد صفين من الحيوانات القرناء، والطيور، وبعض النباتات. وأما القسم السفلي فقد مُثل بالطريقة نفسها التي مُثل بها القسم العلوي (مثلثات متجاورة متداخلة)[119] (الشكل2). و بدراسته لهذه القطعة الفنية، يرى مرجرون[120] أن الجزء العلوي منها ربما يرمز إلى السماء، والجزء السفلي يرمز إلى العالم السفلي، وأما الجزء الأوسط

[119]Margueron J.C.,Mari - Métropole de l'Euphrate. Editions Picard et ERC,Paris, 2004, p.113.
[120] Idem, p.114.

فيرمز –من خلال أشكاله– إلى الطبيعة، وإحدى ربات الخصوبة التي تحمي قوى الإنتاج في الطبيعة. من الصعب الأخذ بهذا الافتراض فيما يتعلق بالسماء والعالم السفلي، لأن المشهد لا يحتوي على أي إشارة تؤكد ذلك، ونعتقد أن هذا الباحث طرحه استناداً إلى انقسام القطعة الفنية إلى ثلاثة أقسام، وهذا الانقسام يتناسب مع رأيه، فالقسم العلوي هو سماء تهب الماء للطبيعة التي تشغل القسم الأوسط، فتنمو النباتات، وتتكاثر الحيوانات والطيور، وتحت هذا القسم (تحت الأرض) يتموضع العالم السفلي عالم الأموات.لا نريد أن ندخل في تفصيلات كثيرة حول هذه القطعة، لأن هذا الأمر غير مجدٍ في بحثنا، وأكثر ما يهمنا الطرح الجريء لمسألة تمثيل الكون، ومنه السماء، على سطح هذه القطعة الفنيةالصغيرة.

ولدينا مواضيع أخرى ترتبط بالسماء، غير أنها لا تصورها تصويراً كاملاً، أحد هذه المواضيع يتعلق بإله الشمس شماش، الذي صورته بعض نقوش الأختام الأكادية على هيئة رجل يصعد من خلف الجبال حاملاً أشعة الشمس على ظهره، واضعاً رجله اليسرى على جبل، و أمامه إلهان واقفان يفتحان له أبواب السماء (الشكل3). ويحمل هذا المشهد الفني رمزية واضحة، تتمثل بشروق الشمس أول النهار، ويبدو لنا أن الفنان أراد أن يعبر عنها بطريقة بسيطة ليتمكن الناس من استيعابها، فكما نعلم الشمس عندما تشرق يُخيل للمرء أنها تظهر من وراء الجبال، ثم تصعد إلى السماء لتبث نورها على الأرض، ولهذا السبب جُسد شماش واضعاً قدمه اليمنى على جبل، متهيئاً لدخول السماء عبر بابين عليهما حراس من الآلهة.

ومن المواضيع السماوية الأخرى التي مُثلت فنياً أسطورة صعود الملك إتانا إلى السماء، التي أشرنا إليها سابقاً، لقد جُسدت هذه الأخيرة على نقش ختم[121]، يصور لنا إتانا صاعداً إلى السماء على ظهر نسر (النسر آنزو) ذي أجنحة كبيرة، وفي الجزء السفلي من المشهد يُشاهد قطيع إتانا مع الراعي وكلبيه، وكان الجميع ينظرون إليه بذهول لحظة صعوده (الشكل4)، ويدل ذهولهم على استهجانهم من هذا الصعود الخرافي، وهنا تكمن أسطورية هذا المشهد، التي ربما كان الفنان يسعى من خلالها إلى إبراز عظمة الملك، وإظهار تميزه عن غيره من البشر. وتذكر الأسطورة أن إتانا أقام صداقة مع النسر، ووعده النسر بمساعدته للصعود إلى السماء، وتحديداً إلى عرش عشتار[122]، ليحصل على نبات النسل، الذي سيداوي به زوجته العاقر[123]، لتحمل، وتلد له ابنا يرثه في الحكم، ولكي نفهم المشهد الفني علينا الرجوع إلى بعض ما جاء في الأسطورة، لاسيما ما يتعلق بدعوة النسر لإتانا للصعود به إلى السماء (الجنة في النص):

تعال، دعني آخذك إلى الجنة،
ضع ذراعيك على جانبي،
ضع يديك على ريشات جناحي.
وضع ذراعيه على جانبيه،
وضع يديه على ريشات جناحيه.

[121]Dalley S., myths from Mesopotamia, Oxford University Press Inc, New York, 1989, p.189.

[122]كريمر،الأساطير في بلاد ما بين النهرين، المرجع السابق، ص54.

[123]الهيتي، قصي منصور، عبادة الإله سين في حضارة بلاد وادي الرافدين، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة بغداد، 1976، ص124.

أخذه النسر إلى الأعلى لمسافة ميل.

'يا صديقي، انظر إلى البلد! كيف

بدا؟'

والبحر الواسع ليس أكبر من حظيرة!

أخذه النسر ميلًا ثانيًا،

'يا صديقي، انظر إلى البلد! كيف

بدا؟'

تحولت البلاد إلى حديقة،

والبحر الواسع ليس أكبر من دلو!

استغرق الأمر منه مسافة ميل ثالث.

'يا صديقي، انظر إلى البلد! كيف

بدا؟'

أنا أبحث عن البلد، لكن لا يمكنني رؤيته!

وعيني لا تستطيع حتى التقاط البحر الواسع[124]

ويوضح لنا هذا المقطع من الأسطورةالعلاقة القوية بين الملك والنسر، وحالتهما، وملامح الأرض أثناء الصعود إلى السماء، وتُرجمت هذه المعاني فنياً على طبعة الختم السابقة. ومن يُمعن قليلاً بالأسطورة، ويتفحص المشهد الفني سيتمكن من فهم هذه العلاقة الأسطورية جيداً، التي نتج عنها صعود إتانا إلى السماء.

وتذكرنا أجنحة النسر في المشهد الفني السابق بالآلهة، التي ظهرت مجنحة في بعض المشاهد الفنية (الشكل5)، ومن المحتمل أن هذه الأجنحة كانت تشير إلى طيران

[124]Dalley S.,op.cit., 197-198.

الآلهة، والدليل على ذلك اعتقاد الرافديين بهبوط الآلهة إلى الأرض وصعودها إلى السماء. وينطبق الشيء نفسه على الكائنات الأسطورية المجنحة، فمن خلال معالجتنا السابقة للثور السماوي، الذي هاجم أوروك، قلنا إن هذا الأخير هبط من السماء، وبتفحصنا للمشهد الذي يمثله فنياً (الشكل6) نلحظ أنه كان مزوداً بجناحين، وهذا يعني أن أجنحة الآلهة والكائنات الأسطورية التي تظهر في المشاهد الفنيةكانت ترمز إلى تنقلها المستمر بين السماء والأرض من خلال الطيران. ومما يؤكد ذلك تعويذة لإخراج الجن الذي دخل إلى جسم الإنسان ليؤذيه، ومما جاء فيها: وإن أردت أن تطير إلى السماء (أي الجن) فعسى أن يكون لك جناح[125]،ونستنتج من هذا النص أن الجناح الممثل فنياً كان يرمز إلى الطيران، وهو موضوع سماوي، وليس كما يظن بعضهم أن الأجنحة كانت ترمز إلى السرعة في اختراق الزمن الرمزي الأسطوري[126]، أو على الأقل كانت لتأدية الوظيفتين في آن معاً.

ولم يكتف الفنان الرافدي بتمثيل الكائنات ذات الأجنحة كموضوع سماوي، بل قام بمعالجة أشكال أخرى، ترتبط بالسماء ارتباطاً مباشراً، لاسيما الأجرام السماوية، كالقمر والشمس وبعض النجوم، التي ظهرت على سطوح القطع الفنية كالمسلات، والكودورو، ونقوش الأختام، وفُسرت على أنهارموز للآلهة، فعلى سبيل المثال الهلال هو أحد رموز إله القمر ناناسين[127] (الشكل7)، ورُمز لإله الشمس أوتواشماش بقرص يضم نجمة وأربع حزم ملتهبة[128] (الشكل8)، ويُعتقد أن هذا القرص يمثل الشمس التي ترمز لإله

[125]فرحان، غيث، عبد، حيدر، دور الآلهة والكهنة في طرد الشر والشيطان في العراق القديم، مجلة دراسات في التاريخ والآثار، العدد 54، 2016، ص12.

[126]موسى، المرجع السابق، ص199.

[127]الشاكر، فاتن، رموز أهم الآلهة في العراق القديم دراسة تاريخية دلالية، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة الموصل، 2002، ص51.

[128]الأحمد، سامي سعيد، المعتقدات الدينية في العراق القديم، بغداد، 1988، ص27.

الشمس[129]، وأكبر دليل على ذلك شكله الدائري، والأحزمة الملتهبة في داخله، وتعدُّ النجمة الثمانية ذات الأطراف المدببة أحد رموز الربة عشتار[130] (الشكل9). وعلى الرغم من أن هذه الأشكال كانت ترمز للآلهة، وبحسب ما هو شائع لم يكن الهدف من تمثيلها تصوير السماء بعينها، إلا أننا لا نستبعد أن يكون الفنان الرافدي قد جمع– في تمثيله لها– بين الجانب الرمزي (الكواكب رموز للآلهة)، والجانب الواقعي (تصوير السماء وانتشار الأجرام فيها كما هو الحال في الواقع)، ومما يؤكد ذلك النقطة التي شغلتها هذه الأجرام في بعض المشاهد الفنية، فبتفحصنا لمسلة نارام سين التي تؤرخ بالعصر الأكادي (الشكل 10) [131]، نلحظ أن النجوم التي ترمز لآلهة رافدية، مُثّلت في أعلى نقطة من المسلة علماً أنه ثمة فراغ في النقطة التي تعلو رأس نارام سين، ويفسر ذلك باحتمالية رغبة الفنان بتصوير النجوم كرموز للآلهة في موضعها الحقيقي (السماء)، وإذا صح هذا التفسير يكون الفنان قد جمع بين رمزية النجوم، وواقعية المكان الذي تشغله(السماء). واتبع الفنان الأسلوب نفسه في العصر البابلي الحديث (625– 539 ق.م)، فمن خلال تفحصنا لمسلة تعود إلى الملك نابونيد(الشكل11) لاحظنا أن النحات مَثّل رموز الآلهة (القمر= إله القمر، والشمس = إله الشمس، ونجمة فينوس = عشتار)[132] في قمة المسلة، في نقطة تعلو المشهد الذي يُجسد الملك، على نحو مماثل للأسلوب المتبع في مسلة نارام سين، وتجاهل هذا الأخير المساحة الفارغة التي تقابل المشهد الذي يظهر فيه الملك، وعلى ذلك قد يكون هدفه تصوير السماء التي تضم هذه الأجرام.

[129]الشاكر، المرجع السابق، ص72.

[130]Pottier J.,op.cit, p.173.

[131]Frankfort H., the art and architecture of the ancient Orient, published by Penguin Pelican, GB , 1970, p.43, pl.44.

[132]Gadd, C.J., The Harran inscriptions of Nabonidus, Anatolian studies, vol. 8, 1958, p.38.

سابعاً: اتصال السماء بالأرض وبالعالم السفلي:

لم تكن السماء معزولة عن الأرض، وتُظهر الأساطير الرافدية القديمة أنه ثمة علاقة قوية بينهما، وتشير معظم العناوين التي عالجناها سابقاً إلى تلك العلاقة، وإلى بعض أوجه اتصال السماء بالأرض. وكما رأينا، السماء كانت ترسل ما كان عندها إلى الأرض، وكانت الأرض تستقبله، وكان هذا الاتصال يحمل الخير والشر للأرض في آن معاً. وتظهر لنا الأساطير اتصالاً من نوع آخر، قامت به الآلهة، التي كانت تنزل من السماء إلى الأرض أو إلى العالم السفلي (عالم الأموات) لتنفيذ بعض المهام، وعند الانتهاء منها تعود إلى حيث أتت، وكانت تهبط لكي تستقر في معابدها لإجراء الطقوس المتعلقة بها أيضاً. ومما يؤكد شيوع هذه المعتقدات في بلاد الرافدين ظهور بعض آلهتها مجنحة في المشاهد الفنية (الشكل 5)، فهذه الأجنحة كما ذكرنا سابقاً تدل على حركتي الهبوط من السماء إلى الأرض، والصعود منها إلى السماء، وهاتان الحركتان تدلان على اتصال السماء بالأرض حسب الفكر الرافدي.

وثمة رأي يقول إن الزقورة بُنيت ليكون معبدها الصغير الذي يتموضع على قمتها، محطة لاستراحة الآلهة الهابطةمن السماء[133] قبل وصولها إلى معابدها الأرضية[134].ونستنتج من هذا الرأي أن الزقورة كانت حلقة اتصال بين السماء والأرض. لا نستطيع أن نؤكد أو ننفي هذا الرأي؛ لأنه ثمة عدة آراء حول وظيفة الزقورة، وكنا قد أشرنا إلى أحد الآراء سابقاً،غير أنه يبقى الرأي الأكثر قبولاً لدى الباحثين، ومما يدعمه معنى الاسم الذي كانت تحمله زقورة لارسا: أي لو كوكا E-I-LU-KUGAA، والذي

[133] باقر، طه، مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة، دار الوراق، ط2، بغداد، 2012، ص629.

[134] محمد يوسف، محمد، كامل، هويدة إحسان، سمات وأنماط العمارة الدينية في العراق القديم الزقورة أنموذجاً، مجلة الملوية للدراسات الآثارية والتاريخية، المجلد 3، العدد 6، 2016، ص167.

يعني سلم السماء المقدس[135]، وكما نعلم السلم يُستخدم عادة للصعود إلى الأماكن العالية، والهبوط منها، وعلى ذلك قد تكون الزقورة– بحسب الفكر الرافدي – وسيلة لهبوط الآلهة من السماء إلى الأرض، والصعود إليها.

ومن الأمثلة على اتصال السماء بالأرض نزول عشتار إلى الأرض لتنصيب إتانا ملكاً على كيش، وقد وردت أخبار هذا النزول في اللوح الأول من الأسطورة المسماة باسم هذا الملك:

عشتار نزلت من السماء لتبحث عن راعٍ،
وبحثت عن ملك لكل مكان،
إنانا نزلت من السماء لتبحث عن راعٍ،
وبحثت عن ملك لكل مكان[136]،

ولدينا أمثلة تشير إلى اتصال السماء بالعالم السفلي، ومنها هبوط شماش إلى العالم السفلي في الليل ليقضي هناك[137]، فهو قاضي الآلهة. ويُعتقد أنه كان يزود الموتى بالنور والطعام والشراب أيضاً[138]. ومن المحتمل أن الفكر الرافدي أعطى شماش مزية الهبوط إلى العالم السفلي متأثراً بمسألة غروب الشمس، التي تحدث مرة في اليوم، وهذا الهبوط يعقبه صعود في فجر اليوم التالي لحظة شروق الشمس، وكنا قد أشرنا إلى هذه المسألة سابقاً عند معالجتنا لطبعة الختم، التي تصور شماش داخلاً إلى السماء من إحدى أبوابها.

[135]علي، فاضل عبد الواحد، من الواح سومر الى التوراة، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد 1989 ، ص105.
[136]Mark J., the myth of Etanna, https://www.ancient.eu/article/224/the-myth-of-etana/
[137]بارندر، جفري، المعتقدات الدينية لدى الشعوب، ترجمة إمام عبد الفتاح، القاهرة، 1996، ص8.
[138]مرعي، معجم الآلهة والكائنات الأسطورية في الشرق الأدنى القديم، المرجع السابق، ص149.

الخاتمة:

نستنتج مما سبق أن السماء خُلقت خلقاً، وهي جزء من عملية خلق الكون، وبحسب الفكر الرافدي هذه العملية تمت بطريقة سلمية، أو بالحرب (حسب كل أسطورة)، والماء هو مادة الخَلق الأولى.وللسماء أبواب، وتتكون من طبقات، وكانت تشغل موقعاً مهماً في الفكر الرافدي، وانعكس ذلك على معتقدات الرافديين، الذين كانوا يؤمنون أنها مصدر للخير والشر في آن معاً، فمنها أتت الملكية، والعدالة، وماء الحياة، ونور الشمس، والطوفان، والخراب، والدمار، والأوبئة، والجفاف، والخسوف. وتعدُّ هذه المسائل من الأسباب الرئيسة، التي جعلت الرافديين يعطونها أهمية كبيرة في فكرهم ومعتقداتهم، وتبلور لديهم معتقد أن الآلهة التي اتخذتها مسكناً لها هي التي كانت تتحكم بأوجهها الخيّرة والشريرة، هذه الأوجه التي كانت تترك آثارها الإيجابية والسلبية في حياة الإنسان، الذي كان يعيش على الأرض. ومع أن السماء كانت مصدراً لكثير من المصائب، التي تصيب البشر، إلا أنها ظلت رمزاً للعلو والرفعة في نفوس الرافديين، لأنها كانت مقراً للآلهة التي تتحكم بالكون، وانعكس هذا المعتقد على الجانب المعماري، إذْ جعل الرافديين يشيدون الزقورات للاقتراب من السماء مركز الآلهة، ولجعلها محطة استراحة للآلهة عند الهبوط إلى الأرض، والصعود منهاإلى السماء، وقد ارتبطت عمليتا الصعود والهبوط ببعض الأعمال التي كان يتوجب على الآلهة القيام بها.

المراجع المعتمدة في البحث:

المراجع الأجنبية:

1. Beyer D., « Les sceaux de Mari au IIIe millénaire, Observations sur la documentation ancienne et les données nouvelles des villes I et II», AkhPurattim 1, 2007, https://books.openedition.org/momeditions/386
2. CharpinD., Civilisation mésopotamienne: Les temples en Mésopotamie : approche fonctionnelle, p.433. http://www.college-de-france.fr/site/dominique-charpin/course-2014-2015.htm.
3. Dalley S., myths from Mesopotamia, Oxford University Press Inc, New York, 1989.
4. Démare-Lafont S. «La majesté royale en Mésopotamie. Une déambulation dans les salles orientales du Louvre», in A. Helmis et al. éd., Vertiges du droit. Mélanges franco-helléniques à la mémoire de Jacques Phytilis, Paris, 2011, p.154 – 177.
5. Dossin G.,« Les archives économiques du palais de Mari»,Syria XX, 1939, p.97 – 113.
6. Frankfort H., the art and architecture of the ancient Orient, published by Penguin Pelican, GB , 1970.
7. Gadd, C.J., The Harran inscriptions of Nabonidus, Anatolian studies, vol. 8, 1958.
8. Margueron J.C., Les mésopotamiens, Picard, Paris ,2000.
9. Mark J., the myth of Etanna, https://www.ancient.eu/article/224/the-myth-of-etana.
10. Pottier J.,Danse, sacré et érotisme : étude anthropocosmogonique des pratiques de mouvement en Mésopotamie, université du Québec à Montréal, service des bibliothèques, 2018.
11. WinitzerA., «Etana in Eden: New Light on the Mesopotamian and Biblical Tales in Their Semitic Context», Journal of the American Oriental Society133(3):441-465, 2013.

المراجع العربية والمترجمة:

1. ادزارد د.، بوب م.هـ، رولينغ ف.، قاموس الآلهة والأساطير في بلاد الرافدين (السومرية والبابلية)، في الحضارة السورية (الأوغاريتية والفينيقية)، تعريب محمد وحيد خياطة، ط1، حلب، 1987.
2. إلياد، مرسيا، تاريخ المعتقدات والأفكار الدينية، ترجمة عبد الهادي عباس، الجزء الأول، دار دمشق، ط1، 1986–1987.
3. بارندر، جفري، المعتقدات الدينية لدى الشعوب، ترجمة إمام عبد الفتاح، القاهرة، 1996.
4. باقر، ملحمة جلجامش، بغداد، 1975.
5. باقر، طه وآخرون، تاريخ العراق القديم، ج2، بغداد، 1980.
6. باقر، طه، مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة، ج1، دار الوراق، ط1، بغداد، 2009.
7. برغش، برغش، سعدون عبد الهادي، الطائي، غفران جعفر عزيز، الكواكب والنجوم ورمزيتها في الأدب العراقي القديم، مجلة كلية التربية–جامعة واسط، العدد الحادي والثلاثين، 2018.
8. بوتيرو، جان، بلاد الرافدين، الكتابة–العقل–الآلهة، ترجمة الأب البير أبونا، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، 1990.
9. الجبوري، علي ياسين، قاموس اللغة الأكادية–العربية، هيئة أبو ظبي للثقافة والتراث، 2016.
10. جميل، فؤاد، الطوفان في السومرية–الآشورية–العبرانية، المركز الأكاديمي للأبحاث، ط1، بيروت، 2014.

11. الجميلي، المعارف الجغرافية عند العراقيين القدماء، دار المشرق الثقافية، 2011.
12. حمزة الطائي، محمد، أهم شارات الملكية في العراق القديم، مجلة آداب الرافدين، العدد 50، جامعة الموصل، 2008.
13. حنون، نائل، ملحمة جلجامش، دار الخريف، ط1، دمشق، 2006.
14. رشيد، عبد الوهاب حميد، حضارة وادي الرافدين ميزوبوتاميا، دمشق، 2004.
15. رو، جورج، العراق القديم، ترجمة وتعليق حسين علوان حسين، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، 1984.
16. روتن، مارغريت، تاريخ بابل، ترجمة زينة عازار وميشال أبي فاضل، دار منشورات عويدات، ط1، بيروت–باريس، 1984.
17. الشاكر، فاتن، رموز أهم الآلهة في العراق القديم دراسة تاريخية دلالية، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة الموصل، 2002.
18. زايبرت، الزة ، رمز الراعي في بلاد الرافدين ونشوء فكرة السلطة والمملكة، ترجمة محمد وحيد خياطة، مكتبة الفيحاء، 1988.
19. سليم، أحمد أمين، حضارة العراق القديم، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، 2011.
20. الشرقاوي، محمد عبد الرحمن، مفهوم فصل السماء عن الأرض في الفكر الديني القديم في مصر وبلاد الرافدين، دراسات في آثار الوطن العربي 5.
21. الشواف، ديوان الأساطير، ج1، دار الساقي، ط1، 1996.
22. الشواف، ديوان الأساطير، ج2، دار الساقي، ط1، بيروت، 1997.

23. الطعان، عبد الرضا، الفكر السياسي في وادي الرافدين، دار الخلود للنشر، بيروت،1981.
24. علي، فاضل عبد الواحد، الطوفان في المراجع المسمارية، مطبعة الإخلاص، بغداد، 1975.
25. علي، فاضل عبد الواحد، من سومر إلى التوراة، سينا للنشر، ط2،القاهرة، 1996.
26. فاروق، إسماعيل، اللغة الآرامية القديمة، جامعة حلب، 1997.
27. فرحان، غيث، عبد، حيدر، دور الآلهة والكهنة في طرد الشر والشيطان في العراق القديم، مجلة دراسات في التاريخ والآثار، العدد 54، 2016، ص1–22.
28. قاشا، سهيل، تاريخ الفكر في العراق القديم، ط1، مكتبة الفكر الجديد، طرابلس، 2008.
29. قاشا، سهيل، الحكمة السومرية في العراق القديم، دار بيسان، ط1، بيروت، 2011.
30. كريمر، صموئيل، السومريون تاريخهم وحضارتهم وخصائصهم، ترجمة فيصل الوائلي، دار غريب للطباعة، الكويت، 1963.
31. كريمر، صموئيل، الأساطير في بلاد ما بين النهرين، ترجمة يوسف داود عبد القادر، وزارة الثقافة والإعلام، دار الجمهورية، بغداد، 1968.
32. كريمر، صموئيل، إيناناودموزي، طقوس الجنس المقدس عند السومريين، ترجمة نهاد خياطة، دار علاء الدين، ط2، دمشق، 1993.
33. الماجدي، خزعل، الدين السومري، دار الشروق، ط1، عمان، 1998.

34. محمد يوسف، محمد، كامل، هويدة إحسان، سمات وأنماط العمارة الدينية في العراق القديم الزقورة أنموذجاً، مجلة الملوية للدراسات الآثارية والتاريخية، المجلد 3، العدد 6، 2016.
35. محمد، هيفاء أحمد عبد الحاج، ألقاب حكام وملوك العراق القديم، رسالة الماجستير، جامعة الموصل، 2007.
36. مرعي، عيد، عبادة آلهة الخصوبة في الشرق القديم، وزارة الثقافة، دمشق، 2016.
37. مرعي، عيد، معجم الآلهة والكائنات الأسطورية في الشرق الأدنى القديم، منشورات الهيئة العامة للكتاب، وزارة الثقافة، دمشق، 2018.
38. مظلوم، طارق، النحت في عصر فجر السلالات حتى العصر البابلي الحديث، حضارة العراق، ج4، دار الحرية للطباعة، بغداد، 1985، ص25– 174.
39. معدى، الحسينى، الحسينى، أساطير العالم، الأساطير السومرية، ط1، كنوز، القاهرة، 2012.
40. مكاوي، عبد الغفار، ملحمة جلجامش، الهيئة العامة لقصور الثقافة، آفاق علمية، ط1، 2003.
41. موسى، رشا، التحولات الشكلية والمضامينية لصورة الآلهة عشتار في طبعات الأختام الأسطوانية العراقية القديمة، مجلة جامعة بابل للعلوم الإنسانية، المجلد 27، العدد 5، 2019، ص186–205.
42. هايدل، ألكسندر، سفر التكوين البابلي، قصة الخليقة (حينما في العلى)، ترجمة سعيد الغانمي، منشورات الجمل، ط1، كولونيا (ألمانيا)، بغداد، 2007.

43. هبو، أحمد ارحيم، تاريخ الشرق القديم (2)، بلاد ما بين النهرين (العراق)، دار الحكمة اليمانية، ط1، صنعاء، 1996.
44. الهيتي، قصي منصور، عبادة الإله سين في حضارة بلاد وادي الرافدين، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة بغداد، 1976.
45. يحيى، أسامة عدنان، الآلهة في رؤية الإنسان العراقي القديم، دراسة في الأساطير، آشوربانيبال للكتاب، ط1، بغداد، 2015.

الأشكال:

الشكل (1): مسلة الشريعة تمثل إله العدالة شماس يقدم العصا والحلقة لحمورابي البابلي
(Démare-Lafont S, 2011, fig.7).

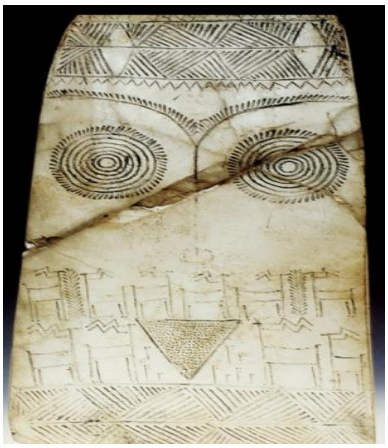

الشكل (2): مسلة ماري العائدة إلى المدينة الأولى
(Margueron J.C. , 2004, fig.92)

الشكل (3): شماش يصعد إلى السماء وإلى جانبه عدد من الآلهة يفتحون له أبوابها
(Frankfort H.,1939, pl.VIII-a)

الشكل (4): طبعة ختم تُظهر صعود الملك إيتانا إلى السماء
(WinitzerA., 2013, fig.1)

الشكل (5): طبعة ختم تمثل عدداً من الآلهة من بينها عشتار مجنحة
(Frankfort H.,1939, pl.XIX-a)

الشكل (6): طبعة ختم تعود إلى القرن السابع ق. م، تصور جلجامش وأنكيدو وهما يقتلان الثور السماوي (مرعي، 2018، ص131)

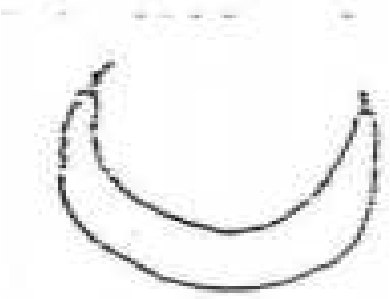

الشكل (7): الهلال رمز الإله سين
(الشاكر، 2002، الشكل 43).

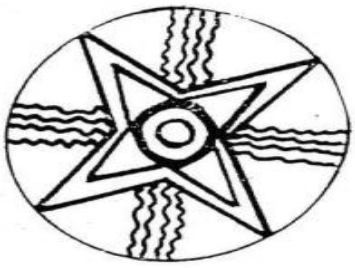

الشكل (8): قرص الشمس رمز إله الشمس
(الشاكر، 2002، الشكل 97).

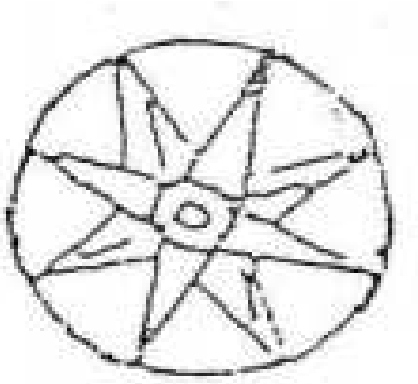

الشكل (9): النجمة الثمانية رمز الربة عشتار
(الشاكر، 2002، الشكل 180).

الشكل (10): مسلة نارام سين، في قمتها بعض النجوم التي ترمز إلى شماش
(Frankfort H., 1970, pl.44)

الشكل (11): مسلة الملك نابونيد
(مظلوم، 1985، الشكل 69-أ)